(٨)

الجنس والأعمال الوحشية

كانت الفترة التى خضعت فيها إسرائيل لحكم قضاتها فترة من الحروب القبلية المستمرة، وقد تم تسجيلها فى النصوص المقدسة بحرص على الرغم من أنها لم تكن دائمًا فى ترتيبها الصحيح. وقد وفّر هذا ذخيرة كافية للخطب الكنسية البروتستانتية المتشددة؛ حيث كان يمكن وصف أعداء انجلترا بأنهم الموآبيون، أو الكنعانيون، أو الفلسطينيون أو العماليق أو العمونيون، والآشوريون المشتتون. وكما تقول ليندا كولى:

«أرسل آدم فيرجوسون فرق الملك فى الأراضى العليا للقتال ضد بقايا الجيش اليعقوبى فى ديسمبر سنة ١٧٤٥م بخطبة اسكتلندية بنيت على أساس خطبة يوآب فى جيش إسرائيل قبل معركته مع العمونيين... كما أن ألكسندر ويبستر، القس المنحاز تمامًا للحكومة فى كنيسة تولبوت فى إدنبره، كرّس خطبه فى كوللودن لأولئك الذين يملؤهم «الاهتمام بصالح قدسنا والحماسة لإسرائيل البريطانية». بينما قام رجل كنيسة آخر، إنجليزى هذه المرة، بالترويج للأهمية الكونية لحرب السنوات السبع فى عنوان خطبته للاحتفال باتفاق الصلح فى باريس سنة ١٧٦٣م - «انتصار الإسرائيليين على الموآبيين، أو البروتستانت على البابويين».

وافتراض أن كل من يقاوم قوة الدولة الوطنية البروتستانتية الإنجليزية يمكن اعتباره من الكنعانيين - ومن ثم يتم التعامل معه بقسوة مماثلة - كان قد انتقل بالفعل إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لا سيما عندما جابهت سكان الأراضى الأصليين أى السكان الأصليين فى أمريكا أو الهنود الحمر.

وضد الأعداء الأقوياء، كان الحكم بواسطة القضاة الدينيين يولّد شعوراً بأنه مصدر للضعف، مثلما كانت فُرقة إسرائيل؛ لأن كل قبيلة عبرية كان لها زعيمها الخاص، وقد أدى هذا بآخر القضاة، صمويل، للموافقة مرغمًا على أن إسرائيل يجب أن تصير مملكة متحدة، ووافق على أن يصبح شاول أول ملوكها. ومع هذا فإنه حذر من مخاطر المركزية والطغيان؛ ولم يمض وقت طويل حتى كان هو وشاول مشتبكين فى خلاف مرير ونزاع مستمر، وكان أحد واجبات الملك الرئيسية أن ينظم الجيش ويقوده، وهو ما قام به شاول لفترة من الزمان بنجاح كبير، ولكن الخلاف مع صمويل بات حتميّا.

كانت الظروف الفعلية السائدة تتميز بنوع من الخصوصية. فقد طلب صمويل من شاول أن ينتقم من الهجمات التى شنها العماليق على الإسرائيليين خلال رحلتهم فى البرية بعد الخروج قبل مائتى سنة. وهزم شاول العماليق، ولكنه لم يدمر كل فرد وكل شيء كما هى العادة(*) (وكما طلب صمويل)، وتم إحضار أجاج ملك العماليق الأسير أمام صمويل الذى اتهم شاول بالعصيان؛ لأنه تركه حيّا، ومضى هو ليمزقه إربًا بنفسه؛ ليبين ما أمر به الرب. والطريقة التى رويت بها القصة، لا تترك مجالاً للشك فى أنه كان من المتوقع أن ينحاز القرّاء لصمويل، ولفعلته القاسية والانتقامية. ومضى شاول وصمويل كل فى طريقه، ولم يلبث صمويل أن سعى لتقويض مكانة شاول بأن عين مساعده داود (الذى كان قد ذبح چوليات العملاق، ومن ثم قدم ذخيرة إضافية لأجيال من الخطب والمواعظ البروتستانتية بعد ذلك بآلاف السنين).

وأسس داود عاصمته القدس ونقل تابوت العهد إلى هناك؛ لكى يجعل المدينة بؤرة للهوية الدينية الوطنية. وقد أعطته انتصاراته على القبائل المجاورة إمبراطورية مصغرة بالفعل ليحكمها، ولكن المملكة لم تصل إلى ذروة القوة والمجد سوى فى

(*) تتكرر فى العهد القديم الأوامر الإلهية بالقضاء على كل نفس حية: الرجال والنساء والأطفال والشيوخ وحتى الحيوانات. اقرأ على سبيل المثال فى سفر التثنية الإصحاح ٢٠: «فلا تستبقوا فيها نسمة حية بل دمروها عن بكرة أبيها» (١٦-١٧)، وفى سفر العدد الإصحاح ٣١: «فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، واقتلوا أيضًا كل امرأة ضاجعت رجلاً» (١٧). - المترجم.

عهد «سليمان بن داود»، وبدأت الحضارة الإسرائيلية تحرز تقدمًا كبيرًا. وبطبيعة الحال، فإن دورة تاريخ الخلاص ـ التى هى من أعراض الشعب المختار ـ بدأت تؤكد نفسها مرة أخرى فى نهاية الأمر، وصار الناس أقل إيمانًا عندما صاروا أكثر رفاهية. وقد تسامح سليمان إزاء الممارسات الوثنية، كما سمح بالمستوطنات غير العبرية فى المملكة. وكان حكمه يثير قدرًا متزايدًا من الاستياء ولا سيما اعتماده على عمل السخرة الإجبارية. اقرأ النص المنسوب إليه فى سفر الأمثال (٦ : ٦ـ٨) الذى كان محل اقتباس متواتر من جانب رجال الكنيسة البروتستانت، لدرجة أنه صار النص الأساسى لما يسمى أخلاقيات العمل البروتستانتى: «اذهب إلى النملة أيها الكسلان. تأمل طرقها وكن حكيمًا. التى ليس لها قائد أو عريف أو متسلط. وتعد فى الصيف طعامها وتجمع فى الحصاد أكلها».

وسرعان ما تمردت بعض أجزاء إمبراطورية داود المصغرة، وعند موته انقسمت إلى اثنتين: الشمالية (التى احتفظت باسم إسرائيل)، والجنوبية (مملكة يهودا). وهكذا تم عقاب الشعب المختار على عصيانه مرة أخرى بسوء الحال.

وقد أدى انفصال مملكتى إسرائيل ويهودا إلى أن يكون لكل منهما تاريخ منفصل، وكل منهما محكوم بقوة ونفوذ الجيران الوثنيين الأقوى، الآشوريين أولاً ثم البابليين (كما تدخل المصريون أيضًا). وتلت ذلك فترة طويلة من الحروب، والتحالفات والأحلاف الفاشلة، التى كانت تهدف إلى التوافق مع الآشوريين. وبرز نبى بعد آخر لكى يحذر الشعب المختار بأن مغازلتهم المتزايدة للآلهة الوثنية الأكثر إثارة لجيرانهم ـ الذين كانت عبادتهم تتضمن عادة عنصرًا جنسيًا قويًا ـ سوف تجلب عليهم الهلاك.

وأكثر هذه الصراعات إثارة وبقاء فى الذاكرة بين الخير والشر (كما رآها راوى الكتاب المقدس) كانت هى الصراع المرير بين النبى إيليا والملكة إيزابيل، زوجة الملك أهاب ملك المملكة الشمالية، وهى النمط الأصلى للمرأة الخطيرة، والتى توصف بأنها عاهرة وشريرة؛ إذ كانت تعارض رب إسرائيل وقتلت عدة مئات من أتباعه (الذين يسميهم النص الأنبياء): وقد تفوق إيليا فى السحر على أتباع بعل فى

منافسة شاذة غير مألوفة على جبل الكارمل، ثم قتل عدة مئات منهم (يسمون الأنبياء أيضًا) بدوره. وهددته إيزابيل بالقضاء عليه، و رد عليها بأن لعنها، قائلاً: «إن الكلاب سوف تأكل لحمها». وسرعان ما حدث هذا، ولم يتبق منها شيء يمكن دفنه. ولا تجسد إيزابيل مجرد الكراهية الدينية للعروض المكشوفة للممارسة الجنسية الأنثوية، فهى تجسيد أيضًا للإغراء والغواية التى تحملها الديانة الوثنية، مع طقوسها الجنسية السحرية والآلهة المزيفة التى تنتظر غواية الإسرائيليين وجذبهم بعيدًا عن عبادة الرب الحقيقى.

وتعاود إيزابيل الظهور فى سفر الرؤيا باعتبارها امرأة تمارس الرذيلة والزنا، وبذلك فهى نمط طبقه المبشرون البروتستانت بسهولة على الكنيسة الرومانية وطرقها الشريرة كما افترضوا. كما أنها علامة على نوع أكثر حذقًا من الروابط: وهى الرابطة بين الخطيئة الجنسية وعدم الإيمان الدينى. ولا يهتم العهد القديم كثيرًا بالخطيئة الجنسية فى حد ذاتها، أو على الأقل ذلك النوع من العلاقة الجنسية العادية. ففى مجتمع أبوى يعرف تعدد الزوجات، فإن الرجل الذى يريد أن يضاجع امرأة غير متزوجة، سواء كان هو نفسه متزوجًا أم لا، عليه أن يتزوجها، وهو ما يتم بالاتفاق مع أبيها. وكان الرجل الذى ضاجع امرأة غير متزوجة قبل الزواج أو خارج الزواج يجبر على الزواج منها، إذا ما كانت امرأة ذات مكانة، وإلا يمكنه أن يجعلها محظيته، أو كان عليه أن يدفع لوالدها نوعًا من الغرامة. وسفر الخروج (٢٢: ١٦ ـ ١٧) يقرر: «وإذا راود رجل عذراء لم تُخطب واضطجع معها يمهرها لنفسه زوجة. إن أبى أبوها أن يعطيه إياها يزن له فضة كمهر العذارى».

وكان الرجل الذى يضاجع امرأة متزوجة من شخص آخر يُدان بارتكاب الزنا، ويمكن رجم الاثنين بالحجارة حتى الموت. ولكن الزنا يكون على حسابها وليس على حسابه، ما لم تكن المرأة التى ضاجعها متزوجة بالفعل من رجل آخر؛ لأن الرجل المتزوج لا يمكن إدانته بالزنا. ولم يكن أحد يهتم برضاء المرأة وموافقتها، ولكن إذا كانت تعتقد أن جسدها ملك للآخرين، فمن المفترض أنها لم تكن تهتم هى نفسها بالموافقة كثيرًا. ومن الأمور ذات الدلالة أن الاغتصاب، بحد ذاته، لم يرد ذكره باعتباره جريمة فى العهد القديم على الإطلاق.

هذه المعايير المزدوجة المتطرفة لا تبدو معقولة سوى إذا ما كانت المرأة تعتبر ملكية للذكر، فإذا كانت هى (أو قدرتها الجنسية) «مملوكة» لشخص آخر، فإن مضاجعتها إذن تكون مشابهة لعملية السرقة، فإذا لم تكن مملوكة لأحد آخر فإنه يمكن الحصول عليها بترتيبات مالية مع أبيها الذى «يبيع» عذريتها إلى زوجها الجديد، ومن ثم فإن فقدان العذرية يدمر قيمتها.

كانت للتطبيق الصارم لهذه القواعد فى المجتمع البيوريتانى فى نيوإنجلاند نتائج متساهلة بطريقة غير متوقعة. ويسجل چون وينثروب حاكم ماساشوستس فى يومياته ليوم ٢١ يونيو ١٦٤١م: «برز سؤال فى المحكمة حول عقاب زنا الأعزب؛ لأنه حسب قانون الرب، كان على الرجل أن يتزوج المرأة فقط، أو يدفع مبلغًا من المال لأبيها؛ ولكن القضية المطروحة بين خادمين، وتم جلدهما بالسياط لأنهما أساءا استخدام منزل سيدهما...».

وأشهر حالة زنا من الفترة البيوريتانية هى الحالة الروائية لـ «هيستر بيرين» التى ألبست الثوب القرمزى الفاضح فى الرواية التى تحمل هذا الاسم للمؤلف نانثنيال هوثورن. فقد كانت متزوجة (على الرغم من أن زوجها كان قد اختفى)، وأنجبت طفلاً من رجل آخر لم يتم الكشف عن هويته. وتحت حكم قانون العهد القديم، الذى تقبله البيوريتان فى ماساشوستس ولكن لم يطبقوه بصرامة، كان ينبغى رجمها بالحجارة حتى الموت. وكان الحكم الذى أصدره قانون ماساشوستسى أن «تجلد على ظهر عربة عبر شوارع البلدة، وترتدى شارة عليها الحرفين AD تقطع فى ثوبها على كمها الأيسر». وفى هذه الحالة جعل هوثورن الحكم على هيستر بيرين يصدر من الحكّام بفترة من الخزى العام - بحيث تقف على مشنقة البلدة - مع إلزامها بأن ترتدى حرف A على ثوبها طوال الوقت. وتخفف بيرين من عقوبتها وتتحايل عليها بأن تطرز حرف A بطريقة فاخرة وترتديه لا بخجل وإنما بفخر يتسم بالتحدى.

وفى مجتمعات العهد القديم وتلك المجتمعات التى حذت حذوها، كان الرجل الذى يتزوج يتمتع بحقوق جنسية على زوجته، بيد أنها لم تكن لها حقوق

جنسية عليه. ومعاملة النساء باعتبارهن ممتلكات للذكر فى مثل هذا المجتمع كانت بدورها جزءاً من نظام للملكية والوراثة داخل العائلات؛ إذ كانت تضمن الحفاظ على ثروة العائلة؛ إذ إن الرجل لا يريد أن يخلفه أبناء رجل آخر نتيجة زنا زوجته. وتضمن العذرية عند الزواج أنها ليست حاملاً من رجل آخر.

والزنا، الذى فهم فى المعنى المسيحى اللاحق بأنه يعنى المضاجعة خارج نطاق الزواج، ليس مفهومًا واردًا فى العهد القديم. فحيثما ترد الكلمة، تعنى عادة المجامعة الجنسية مع عاهرات المعبد، أو فى أية احتفالات أخرى تكريمًا لآلهة الخصوبة الوثنية. وهى بهذا ليست جريمة أو خطيئة جنسية بقدر ما هى دينية. وكان الملوك والأنبياء الذين قاتلوا ضد انجذاب شعبهم صوب الديانة الوثنية التى اصطبغت بالصبغة الجنسية بدرجة عالية والتى كانت تحيط بهم من كل جانب، لا يهتمون أساسًا بالأخلاقيات الجنسية، بالمعنى الحديث؛ إذ كانوا يريدون لإسرائيل أن تبقى مخلصة لربها. وقد كانت مضاجعة إحدى عاهرات المعبد بمثابة مضاجعة الرب الذى تمثله.

ولا أحد يجسّد تلك الغواية الجنسية الوثنية أفضل من إيزابيل الجميلة. ومن الواضح تمامًا أن إيليا لم يكن يعارضها؛ لأنها كانت شهوانية بهذا الوضوح، على الرغم من أنها كانت كذلك بصورة واضحة. كان يعارضها لأنها سحبت العبرانيين صوب الأصنام الزائفة. ولكن فى التبشير البروتستانتى، الذى يعكس النفور المانوى الشديد لكل الأمور الجنسية والذى كان من خصائص البيوريتان وإلى حد ما من خصائص كل الفرق المسيحية أيضًا، كانت إيزابيل قد صارت النمط الأصلى للغواية الأنثوية. وكل امرأة كانت تتجشم عناء أن تبدو ذات جاذبية جنسية كانت تضع نفسها فى موضع المقارنة معها، ويتم تذكرتها بمصيرها المرعب، لقد صارت موضة للنساء أن تلبسن ثيابًا فضفاضة. كانت الزينة تعتبر من عمل الشيطان.

ومساواة الزنا بعدم الإخلاص للرب عملة ذات وجهين. وهناك تراث مواز فى العهد القديم للفهم التدريجى لعلاقة الرب مع الإسرائيليين بأنه يشبه علاقة الزوج والزوجة ـ ليس مجرد الحب الرومانسى، ولكن الزواج بكل تقلباته. ويصير هذا

واضحًا من النبى هوشع فصاعدًا. فقد بدأت أفكاره مع تأملاته فى عدم إخلاص زوجته، التى سامحها عليها. وعلى الرغم من ألمه ظل مخلصًا، وقادته هذه الأزمة التى اعترت زواجه إلى التفكير فى حب الرب للإسرائيليين، وهناك صورة قلمية مؤثرة كتبها بيتر كالڤوكوريسى فى «Who is Who in The Bible?»:

«وجه هوشع ملاحظة حنونة نسبيًا على الرغم من أنه حمل حملة شعواء ضد عبادة الأصنام، والرفاهية، والمجون، وانعدام مسئولية الحكّام الذين خانوا الثقة فيهم. وحث إسرائيل على التركيز على الإصلاح الدينى والأخلاقى ووقف الانشغال بالسياسات العالمية... فقد كان يؤمن بأن وظيفة الرب هى أن يوقع العقاب ولكن أيضًا إظهار الرحمة، وأن الرب مشدود فى طريقين بسبب خطايا إسرائيل وبسبب معاناتها. ولم يكن هوشع نفسه رجلاً سعيدًا، كما أنه على عكس سجايا الأنبياء العبرانيين، كانت حياته الخاصة مشتبكة بصورة مربكة مع نبوته، فقد كان مأمورًا بأن يتزوج عاهرة هى جومر التى رُزق منها بثلاثة أبناء، وأن يخلّص امرأة ساقطة ربما كانت هى جومر، وقد انحرفت مجددًا أو ربما كانت عاهرة أخرى. وسواء كان يعرف أو لا يعرف ماضى جومر قبل أن يتزوجها، فقد صار معاديًا للممارسة الجنسية غير المنظمة وطوّر مشابهة بين الزواج الدنيوى والعلاقة بين الرب وشعبه المختار تتألف من الود وخيبة الأمل».

هذه الفكرة الجوهرية، بينما توضح العلاقة بين شعب الرب والرب نفسه، لتكشف أنها علاقة غفران ومسامحة و ود ورقة وعلاقة قوة فى الوقت نفسه، فإنها أيضًا ترفع من مكانة الزواج؛ إذ إن الاضمحلال التدريجى فى تعدد الزوجات وسيادة الزواج من واحدة فقط (**الذى كان قد رسّخ تمامًا فى زمن العهد الجديد، على الرغم من أن تعدد الزوجات لم يمنع نهائيًا فى اليهودية حتى القرن الحادى عشر الميلادى**) قد تم ربطه مباشرة بهذا الدفع من شأن الزواج سيرًا على نهج هوشع، كما تم ربطه أيضًا بطريقة غير مباشرة بارتفاع شأن المرأة تبعًا لذلك.

وحينما اعتبرت المسيحية أنها حلّت محل اليهودية، انتقلت هذه العلاقة بين الرب وإسرائيل بشكل تنميطى إلى العلاقة بين الرب والكنيسة (أو تحديدًا بين

المسيح والكنيسة)، بيد أنها لم تحتفظ بفكرة أن الكنيسة يمكن من حين لآخر أن تكون غير مخلصة، أو أن المسيح قد يحتاج إلى مسامحتها. وبدلاً من ذلك، كان يُنظر إلى الكنيسة على أنها عروس لا تشوبها شائبة، عاجزة عن ارتكاب الخطيئة (الجزء «المقدس» من قائمة الصفات التى تتحلى بها الكنيسة فى العقيدة «كنيسة كاثوليكية وحوارية واحدة مقدسة»). وبدلاً من مشابهة حقيقية لحياة الزواج، تصير العلاقة بين المسيح والكنيسة، مثل الحب الرومانسى فى الخيال الشعبى، شهر عسل دائمًا.

ولا شك فى أن هذا أضعف قيمة المجاز والاستعارة، كما أنه فرض رؤية نظرية للكنيسة تتناقض مع المؤسسة الفعلية المتكبرة والخاطئة وغير المخلصة غالبًا التى نعرفها من خلال تاريخ الكنيسة. وثمة قدر كبير من سوء الفهم، بعضه تم خلقه عمدًا، قد فاض من هذا الانفصام، وما يزال يتدفق؛ إذ إن النظرية ترتكز على فهم ميتافيزيقى ودينى بأن الكنيسة هى علامة خارجية، ربما تكون جزئية أو معيبة، وحقيقة داخلية، ينبغى أن تكون كاملة. وقد رفض البروتستانت الأوائل هذه الغيبيات المقدسة، لسبب جوهرى يرجع إلى رفضهم اللاهوت الكاثوليكى عن طقس التناول - وهو الذى يميز بين العلامة الخارجية للطقس المبارك، الخبز والنبيذ، والحقيقة الداخلية التى هى دم المسيح وجسده. وحتى اليوم، عندما تتحدث الكنيسة الكاثوليكية عن نفسها، فإنها تتجه إلى أساس الكنيسة الخفية (الكاملة)، بدلاً من المظهر الخارجى المرئى (الذى يكون غالبًا بشريًا أكثر من اللازم). ولهذا السبب، فإن الڤاتيكان فى اعتذاره بمناسبة الألفية الثانية لنزعة معاداة السامية لدى الكاثوليك، وجّه اللوم إلى «أعضاء الكنيسة» بدلاً من «الكنيسة» ذاتها، وهو تمييز ترك بوضوح كثيرًا من اليهود بإحساس أن الاعتذار لم يكن من القلب تمامًا.

والمذهب البروتستانتى، بينما لا يعرّف «الكنيسة» بأنها المؤسسة التى تحمل ذلك الاسم وتتمركز على روما «وإنما العكس»، فإنه يطبق على مفهومه الخاص للكنيسة «المبدأ اللوثرى»، بمعنى أن الكنيسة تحتاج إلى أن تكون فى عملية إصلاح

مستمرة، وهذا أقرب إلى نموذج العهد القديم عن شعب الله المختار. إنها علامة على الكنيسة الكاثوليكية التى بدأت تتحرك صوب هذا الفهم للكنيسة أن مجمع الڤاتيكان الثانى (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥م)، بينما يستخدم أيضًا مصطلحات «الشعب المختار» للدلالة على نفسه بقدر أكثر كثيرًا عن ذى قبل، فإنه أيضًا مضى شوطًا فى اتجاه المفهوم اللوثرى عن الإصلاح المستمر بأن تبنى نفس المعادلة عن التطهير المستمر. أما ما لم تفعله حتى الآن لكى تجعل نموذج العهد القديم عن النبوة مناسبًا لها، وهى أن شخصًا ملهمًا يمكن أن يقف فى مكان الأنبياء ويكون ناطقًا باسم الرب لعمل التطهير المتواصل، بيد أن هذا ربما يكون تطورًا يمكن التطلع إليه فى المستقبل. وتحتاج الكنيسة الكاثوليكية إلى هوشع آخر، لا لكى يخبرها بعريس مولع دائمًا بجمال الكنيسة، ولكن يخبرها عن زوج كسير القلب يسامح زوجته غير المخلصة مرات ومرات.

وإلى أن حولت الدراسات الحديثة فى الكتاب المقدس التفسيرات غير المقبولة، كان من المفترض أن هذه العلاقة الزوجية التنميطية (الرب - إسرائيل يساوى الزوج - الزوجة) تشرح وجود بعض الشعر فى العهد القديم بشكل صريح، وهو ما يسمى «نشيد الأنشاد»أو «نشيد سليمان»؛ إذ إن المشاعر الرومانسية التى يرد وضعها كان يفترض أنها إشارة مجازية أو تنميطية إلى الزواج العاطفى بين الرب وإسرائيل (أو بين المسيح والكنيسة). والحقيقة أن هذا التفسير مفتقد فى العهد القديم، ويبدو أنه ربما لم يخطر ببال الباحثين اليهود حتى سمعوا الباحثين المسيحيين يطبقونه على الكنيسة فى القرن الثانى بعد الميلاد تقريبًا. وفى كل من الحالين ربما كان الدافع هو تفسير نص يبدو أنه يطرى الشهوة الجنسية، وهى فكرة لم تكن السلطات الدينية اليهودية أو المسيحية مرتاحة إليها.

والتفسير القائل بأن الكاتب، ربما يكون الملك سليمان نفسه، كان يحاول أن ينافس طقوس الإخصاب الكنعانية كان شائعًا لفترة من الزمان ولكنه غير مقبول الآن. وهناك مشابهات فى أشعار الحب المصرية القديمة، ولكنها ليست اقتباسات مباشرة؛ إذ إن «نشيد الأنشاد» بقدر ما يحمله من دور تعليمى

بالمصطلحات الدينية، فإنه كان يوضح أنه لا يوجد شيء خاطئ فى الرغبة الجنسية بحد ذاتها، ولا أن الرب يغضبه أن يستمتع الرجال والنساء ببعضهم البعض بهذه الطريقة. وهناك أيضًا مساواة بين رغبة الرجل فى المرأة أو رغبة المرأة فى الرجل؛ إذ إنها ليست علاقة سيادة أو امتلاك، ولكنها علاقة عاطفة، ورغبة وإخلاص متواضع. ويفكر الباحثون الآن بأنه من المرجح أن «نشيد الأنشاد» قد تم جمعه من مقاطع كانت تؤدى فى الأصل للتسلية فى احتفالات الزواج، وهذه عينة دالة على الأسلوب:

«ها أنت جميلة يا حبيبتى ها أنت جميلة عيناك حمامتان من تحت نقابك، شعرك كقطيع معز رابض على جبل جلعاد، أسنانك كقطيع الجزائر الصادرة من الغسل اللواتى كل واحدة مُتئم وليس فيهن عقيم، شفتاك كسلكة من القرمز، وفمك حلو، خدك كفلقة رمانة تحت نقابك، عنقك كبرج داود المبنى للأسلحة، ألف مجن علق عليه كلها أتراس الجبابرة، ثدياك كخشفتى ظبية توأمين يرعيان بين السوسن، إلى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال أذهب إلى جبل المر وإلى تل اللبان، كلك جميل يا حبيبتى ليس فيك عيبة.

هلمى معى من لبنان، انظرى من رأس أمانة من رأس شنير وحرمون من خدور الأسود من جبال النمور، قد سبيت قلبى يا أختى العروس، قد سبيت قلبى بإحدى عينيك بقلادة واحدة من عنقك. ما أحسن حبك يا أختى العروس كم محبتك أطيب من الخمر، وكم رائحة أدهانك أطيب من كل الأطياب، شفتاك يا عروس تقطران شهدًا، تحت لسانك عسل ولبن ورائحة ثيابك كرائحة لبنان» (نشيد الأنشاد ٤: ١ ـ ١١).

والنشوة غير المكبوتة التى يحملها النص تعنى أنه لم يكن من النصوص المفضلة لدى أى مبشر پيوريتانى، كما أنه لم يكن يعطى قدرًا كبيرًا من الثقل فى النظرة الكاثوليكية التقليدية القائلة بأن المتعة الوحيدة فى الجنس هى إنجاب الذرية، وأن هذا الولع الزائد، حتى فى فراش الزوجية، كان خطيئة. والنزول بـ «نشيد الأنشاد» إلى جعله مجرد مجاز لاهوتى، يوضح مدى الحب الكثير الذى أحبه الرب

لإسرائيل (أو المسيح للكنيسة)، كان وسيلة مناسبة لدفن ابتهاج الشاعر الواضح بالشهوة الجنسية.

وبمرور الوقت انعكست هذه الموافقة المتساهلة تجاه النساء والزواج والجنس فى العهد القديم على المواقف تجاه الحرب، فالواقع أن ذلك تجلى فى زيادة عامة فى الحكمة وتناقص عام فى الوحشية عبر المسرح. فقد كانت التطورات السياسية والعسكرية بمثابة المهماز، بيد أن النتيجة تمثلت فى كَمّ من الأدب الدينى أنتجه أنبياء بنى إسرائيل الكبار والصغار، يتميز بالعمق والأصالة التخيلية فاق الأدب فى أية حضارة أخرى آنذاك، وبدا كما لو أن مصائب الشعب، التى تسببت فيها سلسلة من الملوك الصغار الذين كانوا إما حمقى وإما أوغادًا، قد ولدت انفجاراً مساويًا للطاقة الإبداعية لصالح الخير من جانب الرجال المتعلمين والحكماء فى ذلك الزمان (كان بعضهم، بسبب حكمتهم، يبدون مجانين فى عيون معاصريهم). كان معظم هذا الأدب مكرسًا لتصحيح بلاهة الملوك وتحذير الشعب من عواقب حماقتهم، بيد أن مجاله تعدى سياقه المباشر، ومثل الفن العظيم فى كل مكان كان يتحدث عن الحالة الإنسانية فى كل الظروف. **ولا شىء أثر على الفضاء العقلى للثقافة الغربية بقدر ما أثرت المزامير، والأمثال والنبوءات التى تولدت عن الأحداث المعروفة باسم «النفى البابلى» (أو الأسر البابلى)، وهى فترة أزمة سياسية وعسكرية حادة فى حياة بنى إسرائيل أوشكت فيها على الهلاك إلى الأبد. وكان فى تلك الفترة أن تمت كتابة الجزء الأكبر من العهد القديم، وتحريره على الصورة المعروف بها.**

وإذ لاحظنا بربرية الإسرائيليين القدماء، وحوادث الاغتيال والمذابح التى كانت تتم بشكل روتينى بموافقة الرب أو بناء على أمر منه، فمن المهم أيضًا أن نتعرف على عمقهم وإدراكهم الأخلاقى المتنامى، والشعور بالعدالة، وإدراكهم لكوامن الشفقة فى الحياة الإنسانية، وأهمية الاعتماد المتبادل. وإذا كانت البربرية مثالاً خطيراً للأمم اللاحقة التى ظنت أنها مختارة من الرب، فإن النظرة الأخلاقية والروحية المتنامية التى كانت قد بدأت تميز الإسرائيليين القدماء أيضًا كانت عاملاً قويًا فى تطور الحضارة فى ظل المسيحية.

وأولئك الأنبياء كانوا لا يألون جهدًا وهم يؤنبون حكّام زمانهم. ومن المحتمل تمامًا أن البروتستانت فى بريطانيا وبعدها فى أمريكا ساروا على مثالهم، واعتبروا أن لهم حقًا إلهيًا لأن يصرحوا بما فى أذهانهم عن أخطاء حكّامهم.

وفى بعض الأحيان كانت وظيفة «النبى» ـ تكاد تعتبر وظيفة ذات صلاحيات ـ جزءًا من مؤسسة المعبد فى القدس. وإذا ما اعتبرنا أن مهمة النبى الرئيسية كانت توبيخ الحاكم والشعب جراء سلوكهم الردىء، فقد كانت نوعًا من «المعارضة الرسمية». والكلام عن حرية الحديث مبالغة على أية حال؛ لأن الأنبياء كانوا يدينون الملوك ويواجهون الهلاك وربما كانت حياتهم ثمن ذلك. ومع هذا إدانتهم واردة فى روايات العهد القديم على نحو مطوّل، عادة على أنها كلمات ينطق بها البشر ولكنها آتية من الرب مباشرة، ودائمًا يكون كاتب النصوص المقدسة فى جانب الأنبياء. وباعتبار العهد القديم سجلاً للنبوءة، فإنه عبارة عن كتالوج قوى المعارضة ضد سوء استخدام الحكم. ولأنه كان يعتبر فى المجتمعات البروتستانتية «كلمة الرب»، فإن هذا أسبغ على المعارضة (على الأقل حينما كان التعبير عنها يتم باسم الديانة الحقيقية) خاصية مقدسة. وربما لم تكن تروق للملك و وزرائه ولكن مع وجود مثل هذه الأمثلة المأخوذة من الكتاب المقدس، فإنه لم يكن بوسعهم أن يجادلوا بسهولة بأن توجيه النقد إلى الملك كان أمرًا شريرًا أو مناقضًا لإرادة الرب.

وإذا ما أخذنا فى اعتبارنا مدى انغماس العامة فى الكتاب المقدس، فإن مفهوم التوتر المستمر بين الملك والنبى، بين الحكومة والمعارضة، كان تأثيرًا تشكيليًا مهمًا فى ظهور الديموقراطية البرلمانية فى انجلترا، وعلى الرغم من أن النقد الموجه إلى سياسة الدولة صار علمانيًا عندما صارت مواضيع الشئون السياسية نفسها علمانية، فإنها برزت فى البداية عندما كانت كل الشئون السياسية تقريبًا متداخلة مع الدين. ونقص المجاز النصى المماثل فى الجدل السياسى فى الفهم الكاثوليكى للنبوءة الواردة فى الكتاب المقدس، ربما يشرح السبب فى أن الديموقراطية البرلمانية كانت على مدى فترة طويلة تعتبر نظامًا أجنبيًا وغريبًا فى البلاد الكاثوليكية؛ إذ إن تراث النبوءة معاد للاستبداد الملكى ـ بمعنى أن الملك لا

يمكن أن يخطئ- قدر معاداته للاستبداد الكنسى - بمعنى أن الكنيسة لا يمكن أن تخطئ. وكل من يعرف العهد القديم ويطبقه على موقفه الخاص يعرف الأمر بطريقة مختلفة: فالملوك والكنائس يرتكبون الأخطاء طوال الوقت. وهذا قد يفسر السبب فى أن المجتمعات الكاثوليكية كانت أكثر انفعالية وأكثر ثورية من المجتمعات البروتستانتية، كما يفسر السبب فى أن المجتمعات البروتستانتية كانت تؤخذ على أنها أشد إخلاصًا للكتاب المقدس. يقدم النظام البرلمانى الطريقة التى يمكن أن تستجيب بها المؤسسات الحكومية للضغط، وبدونها، ليست لديها سوى بدائل قليلة للمقاومة حتى الموت، أو الانهيار.

وربما يفسر هذا أيضًا السبب فى أن البروتستانتية القائمة على الكتاب المقدس قريبة الشبه بفكرة الحرية والتحرير. وهذه الحالة ليست أكيدة تمامًا، فباسم البروتستانتية تم ارتكاب الجرائم الفظيعة فى حق الإنسانية، وإذا ما وضع المرء البروتستانتية ضمن الأيديولوچية الدافعة إلى استعمار أفريقيا، مثلاً، أو القضاء على المقاومة المحلية ضد التوسع الأمريكى باتجاه الغرب، أو التورط الأنجلو- أمريكى فى الرق، فإن مثل هذه الجرائم قد تفوق تلك الجرائم التى ارتكبت باسم الكاثوليكية (على الرغم من فظاعتها هى الأخرى). لقد كانت الكاثوليكية هى الراية التى فى ظلها اضطهدت مارى الدموية الشهداء البروتستانت فى منتصف القرن السادس عشر، وهى قصة أرّخ لها بشكل حيوى على مرّ السنوات چون فوكس، واضطهادات الهيجونوت فى فرنسا، أو مصير اليهود والهراطقة فى إسپانيا تحت فظاعة محاكم التفتيش. ولكن فى العهود البروتستانتية التالية، تم إعدام المزيد من الكاثوليك فى انجلترا وويلز بقدر يفوق العدد الكلى لضحايا الملكة مارى. وسواء كان الموت شنقًا، أو الإغراق، أو تقطيع الجسد إلى أربعة أجزاء (وهو المصير الذى لقيه معظم الكاثوليك) فإنه لم يكن أقل قسوة من الموت حرقًا (الذى كان الوسيلة المفضلة للتخلص من البروتستانت). والنقطة هنا ليست مسألة من قتل معظم الناس، أو مسألة أى شكل من أشكال الإعدام كان أشد إيلامًا، وإنما هى أن الكاثوليك تحت حكم إليزابيث الأولى أو چيمس الأول، لم يكونوا أكثر حرية فى التعبير عن آرائهم مما كان البروتستانت تحت حكم مارى. لقد كان هناك

حديث مستفيض عن «التسامح» عندما اقترب القرن السابع عشر من نهايته، بيد أنه لم يكن أبدًا تسامحًا تجاه الكاثوليك - باستثناء فترة حكم چيمس الثانى القصيرة. وبعبارة أخرى، كان تسامحًا إزاء أولئك الذين كان من الأسهل التسامح إزاءهم، أى تسامح بثمن بخس(*).

كانت هناك جرائم الكاثوليك، ولا يمكن للمرء أن يقول المثل عن جرائم الكراهية الأخرى التى تقف ضد اسم البروتستانتية الطيب فى انجلترا وأمريكا القرن السابع عشر - اضطهاد الساحرات. ومثل هذا التحرر أو الحرية كما زعمتها البروتستانتية، كان تحررًا لشعب الرب، تمامًا مثل الحال فى العهد القديم. ومعظم ما نُهى عنه فى شرائع موسى، بما فى ذلك الحرية من العبودية، لم يكن ينطبق سوى على العبرانيين، وأى واحد خارج هذه الحدود، سواء كان غريبًا أو خائنًا، لا يتمتع بمثل هذه الحماية، والكاثوليك (لكونهم أعضاء فى شعب مختار منافس) لم يكونوا تحديدًا من ضمن هؤلاء، ولا اليهود (لأسباب مشابهة). وكانت الساحرات أشد سوءًا من الاثنين؛ لكونهن عدوات سريات بالداخل أكثر من الأعداء الواضحين فى الخارج. فالسحر، مثل الهرطقة، جريمة فكر: فالفعل نفسه خفى، على الرغم من أنه يمكن استنباطه من أدلة أخرى.

وعلى مدى الألف سنة الأولى من المسيحية كان السحر يعتبر إما مجرد استمرار للاعتقاد الوثنى فى السحر، أو مجرد عبث. هذا على الرغم من المنع الواضح فى سفر الخروج (٢٢ : ١١) «لا تدع ساحرة تعيش»، وهو ما يشير ضمنًا إلى أن الساحرات كن حقيقيات. وكل من الرومان ومحاكم التفتيش الإسپانية لم يأخذ السحر على محمل الجد، كما أن المناطق الأوروپية تحت هيمنة الرومان والإسپان لم تشهد موجات الهياج المجنون ضد السحر والتى اندلعت فى الأماكن الأخرى، لا سيما فى ألمانيا (تحت الإشراف الكاثوليكى إلى حد بعيد) واسكتلندا (تحت

(*)وضع المفكر الإنجليزى المشهور «چون لوك» كتابًا صغيرًا عن التسامح فى نهاية القرن السابع عشر، وفى نهاية الكتاب أوضح أن هذا التسامح يستثنى منه: اليهود والأتراك (المسلمون)، ومن لهم ملك خارج البلاد(يقصد الكاثوليك والبابا)! . ولمن أراد الاستزادة يمكنه قراءة كتاب «رسالة فى التسامح» الذى نشرته «دار الغرب الإسلامى»، وترجمه وقدمه بدراسة متميزة عبدالرحمن بدوى.

الإشراف البروتستانتى)، وبلغ حرق الساحرات الذروة فى انجلترا خلال فترة الحكم البيوريتانى تحت كروميل. كما أن محاكمة سالم الشهيرة التى ضمت مائة وخمسين متهمًا فى ماساشوستس، والتى كانت محكومة بالحرفية البيوريتانية المستندة إلى الكتاب المقدس أيضًا، حدثت فى وقت لاحق سنة ١٦٩٢م، وأسفرت عن شنق تسعة عشر - وبعدها بوقت غير طويل صدر العفو عن عدد مماثل.

والمعارضة المتوحشة من جانب البيوريتان للسحر تم تفسيرها بطرق مختلفة، وهى تقدم مجالاً غنيًا للحالات التى يلتقطها المحللون النفسيون وعلماء الأنثروبولوچى. وثمة تفسير دينى يمكن أن يكون مؤداه أنها نتاج للإيمان بالقدر؛ إذ إن أولئك المختارين - الذين مقدر لهم سلفًا أن ينالوا الخلاص - كانوا بطبيعة الحال فضوليين بشأن أولئك الذين ليسوا كذلك، والذين لا يمكن أن يكونوا جميعًا من الرومان الكاثوليك؛ ذلك أن من ينال الخلاص، والملعون، كانا يتزاحمان بالمناكب سويًا فى غمار الحياة، ولا يكاد كلٌ منهما يقدر أن يطلب من الآخر أن يبتعد. ومن هذا فإنه إذا كان من سينالون الخلاص قد اختارهم الرب فعلاً، فإن الملعونين إذن كانوا، بالاستنباط، مختارين من الشيطان بالفعل. ولكون الشيطان ماكرًا، فإنه لم يكن ليكشف عن اختياره بهذا الوضوح، بأن يجعلهم جميعًا مثلا أشرارًا إلى أبعد مدى. ولذلك فإن بعضهم لا بد وأن يعيشوا مظهريًا عيشة تواضع وتقوى، بينما يحافظون على روابطهم مع الشيطان سرًا. وكان جزء من عمل الشيطان هو أن يخطف أرواح المختارين من الطريق إلى السماء - فالقدر لم يكن سوى توضيح لحالة من النعمة يمكن خسرانها، وليس ضمانًا أكيدًا للخلاص أيًا كانت الحال. ومن ثم فإن أولئك الذين انخرطوا فى أعمال السحر كانوا إما «مسيحيين ساروا فى الطريق الخطأ» - وهم يمكن التبشير بينهم، وجعلهم يعترفون، وإعادتهم إلى المسيحية ومعاقبتهم ثم يتم التكفير عن ذنوبهم فى النهاية - أو أولئك الذين قدر لهم سلفًا أن تنالهم اللعنة، ولا يمكنهم التوبة، ولا يمكن بعد التظاهر بهذا أن يعودوا إلى دينهم. وتبدو فكرة أن السحر بقاء لديانة وثنية سابقة فكرة خيالية؛ إذ لا توجد وسيلة يمكن أن تكون بها

«ساحرات سالم» الشهيرات، مثلاً، على اتصال بديانة إنجليزية سابقة على المسيحية.

وحالة البارانويا بشأن الساحرات التى أمسكت بتلابيب أوروبا ومسّت نيوإنجلاند على مدى مائتى سنة لم تلبث أن خفتت، بعد أن أودت بحوالى خمسين ألف ضحية. والاعتقاد فى السحرة كان يتطلب اعتقاداً نشطًا فى الشيطان، أى روح شريرة قادرة على أن تتخذ شكلاً إنسانيّا أو حيوانيّا يتجول فى العالم لينشر الشر، وتقيم الساحرات معه علاقات جنسية! . والشيطان بطبيعة الحال، كان مرتبطًا بالمسيح الدجال بشكل وثيق. **وفى انجلترا وأمريكا البروتستانتيتين، تصادفت قمة الهياج لمطاردة السحر مع ذروة البارانويا تجاه الكاثوليكية، لا سيما الخوف من أن كثيرين من الناس الذين تظاهروا بأنهم ليسوا كاثوليكًا كانوا كذلك بالفعل. وكانوا معروفين بأنهم أتباع «الكنيسة البابوية»، والمقصود بهم أولئك الذين توافقوا مع كنيسة انجلترا دون أن يتخلوا حقّا عن «الديانة القديمة» التى استمروا يمارسونها فى السر. وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا العقوبات القاسية على عدم حضور الخدمات الكنسية فى الكنيسة المعترف بها، بما فى ذلك خطر الحرمان من الميراث، فإن مثل هذا التوافق المظهرى كان واسع الانتشار.**

وكذلك لم يكن الشك البروتستانتى فى تشارلز الثانى ونظامه خياليّا تمامًا؛ إذ إنه تقبل مساعدة مالية من ابن عمه الفرنسى لويس الرابع عشر، وهى مساعدة كانت مشروطة بأن يتحول إلى الكاثوليكية، وهو ما فعله على فراش الموت. ولكن نتيجة لمناخ الشك السائد هذا كان كل شىء خطأ لا يمكن نسبته إلى السحر يمكن أن يُعزى إلى الكاثوليك وأنشطتهم السرية، أو إلى الكاثوليكية والسحر فى تحالف شيطانى. ففى البداية كان اللوم يوجه رسميّا إلى الكاثوليك بشأن النيران التى دمرت معظم أنحاء لندن سنة ١٦٦٦م. والأوبرا التى ألفها بورسل تحت عنوان: «Dido and Aeneas»، والتى ربما تكون قد كُتبت قبل موت تشارلز الثانى سنة ١٦٨٥م، حينما كان الهياج البروتستانتى المحموم لقدوم الملك الكاثوليكى چيمس الثانى فى ذروته، كان له دور فى «الساحرة الكبيرة والساحرات

اللاتى يتبعنها»، والذى كان يتم تفسيره دائمًا على أنه إشارة إلى التهديد الأسود والمنحوس من جانب البابوية فى الخيال الشعبى.

وفكرة أن البروتستانتية تقف مدافعة بوضوح عن الحرية فكرة يحيط بها الشك ما لم تكن تعنى، بعبارة أخرى، حرية أن تكون بروتستانتيًا طيبًا. وحتى فى ذروة محاكم التفتيش الإسبانية، كان الكاثوليكى يستطيع أن يزعم تحديداً مساويًا ـ أى حرية أن تكون كاثوليكيًا طيبًا. وفى كل من الحالين، فإن الحرية المحدودة التى كانت موجودة كانت تمنح فقط لأولئك الذين هم ضمن «شعب الرب»، مهما كان تعريفه. وأولئك الذين خارج حدوده لم تكن لهم مثل هذه الحرية؛ ذلك أن الكاثوليك لم يكونوا يتسامحون مع البروتستانت، كما لم يكن البروتستانت يتسامحون مع الكاثوليك، وعلى العموم لم يكن كلاهما يتسامح مع اليهود.

وعلى أية حال، فسواء كانت كاثوليكية أو بروتستانتية، فإن الحرية كانت لها خصوصية إنجليزية. فالحرية هنا لا تعنى بالتحديد حرية الكلام ـ إذ إن الإنجليز على مدى فترة طويلة كانت لديهم قوانين ضد الكلام والكتابة المثيرة للشغب ـ ولكنها تعنى بنية من القوانين التى تضع حواجز ضد سلطات الملك دفاعًا عن الرعية، والميثاق الكبير (الماجنا كارتا) سنة ١٢١٥م لم يكن بداية هذه التقاليد؛ إذ إن كثيراً من متطلباته وضعت فى مصطلحات ترغم الملك على احترام الحقوق القائمة والاتفاقات الموجودة، موضحة أنها قائمة وموجودة منذ القدم، وبعضها موجود منذ فترة ما قبل الغزو [النورمانى ١٠٦٦م]. وأهم الحقوق الممنوحة فى ظل الميثاق الكبير تذهب بطريقة ما لضمان حقوق الرعايا. وتوضح العبارات الحاسمة أن:

«(٣٨) لا يجب على مُحضر فى المستقبل أن يقدم أحداً إلى المحاكمة بمجرد كلامه، دونما وجود شهود موثوق بهم، يُستدعون لهذا الغرض».

«(٣٩) لا يجب القبض على رجل حر أو سجنه أو تجريده من أملاكه أو تجريمه أو نفيه أو أن يكون ضحية بأية طريقة، كما أننا لن نهاجمه أو نرسل أحداً لمهاجمته، إلا بناء على حكم قانونى من حكّامه، أو بمقتضى قانون البلاد».

«(٤٠) لن نبيع إلى أى أحد، ولن نرفض أو نؤجل لأى أحد حقه أو العدل».

ولم يقم كبير أساقفة كانتربورى، ستيفن لانجتون، فقط بتنظيم احتجاجات البارونات التى أدت إلى الميثاق الكبير، ولكنه تصرف باعتباره أحد الشهود والضامنين له (على الرغم من أنه أيضًا خضع للتأكيد البابوى). ولذلك فإنه كان يبدو أحيانًا فى أعين زعماء كنيسة العصور الوسطى، كما لو كان يقدم صوتًا تنبؤيًا ضد طغيان الملك، وقد حاربت الكنيسة بضراوة للحفاظ على الحرية الكافية لعمل هذا. كان هذا هو الموضوع الأساسى فى النزاع بين هنرى الثانى وسلف لانجتون الشهير فى القرن السابق، توماس بيكيت، **وهكذا فإن العبارة النهائية فى الميثاق الكبير تبدأ بتكرار الضمان الذى سبق منحه، بأن الكنيسة الإنجليزية لن تكون تحت سلطة الدولة الإنجليزية:**

«وحيث نرغب ونأمر بصرامة أن الكنيسة الإنجليزية يجب أن تكون حرة، وأن الرجال فى مملكتنا سيكون بمتناولهم الحريات المذكورة سابقًا والحقوق والامتيازات أيضًا وبسلام، وبحرية وهدوء، كاملة غير منقوصة، لهم ولورثتهم منا ومن ورثتنا، فى كل الأمور وفى كل الأماكن إلى الأبد، على نحو ما سبق ذكره...».

كذلك أنشأ الميثاق الكبير مجلسًا يتألف من خمسة وعشرين من البارونات، كان عليهم مراقبة مراعاة الملك لشروطه، كما كان لهم حق شن الحرب على الملك إذا ما نكث بوعوده. كانت هذه هى الوسائل المختلفة التى بدأ بها الدستور الإنجليزى بناء عوامل الضبط والتوازنات؛ لكى يسحب السلطة المطلقة من الملك، ويعاقبه إذا حاول ممارستها. وهناك علامات لا تخطئها العين هنا على أن البارونات، وستيفن لانجتون بصفة خاصة، كانوا على وعى بنموذج العهد القديم، حيث كان مسموحًا للأنبياء أن يشرفوا، ويحتجوا عند الضرورة، على الطريقة التى يمارس بها الملك سلطاته. وعلى الرغم من أن «الماجنا كارتا» لا يضفى أية رخصة أو موافقة على الجمهورية، فإن الذين وضعوا مسودة الدستور الأمريكى، ودساتير كثير من الولايات الأمريكية منفردة، اعتبروه نقطة مركزية لفلسفتهم؛ إذ إنه أعطى بالفعل موافقة قانونية لحمل السلاح ضد ملك يعوق الحريات التى ضمنها الميثاق، وهو ما

قد يكون السبب فى أنه كان دائمًا محفوظًا فى الذاكرة التاريخية فى أمريكا أكثر منه فى انجلترا.

ومن ناحية أخرى فإن النظام الدستورى الإنجليزى بمعارضة «رسمية» دائمة ـ وهى تسمى بالفعل «معارضة جلالة الملكة المخلصة» ـ هو أقرب لنموذج العهد القديم حتى من النظام الأمريكى، حيث إن الحزب الموجود خارج السلطة فى الكونجرس أو البيت الأبيض لا يرى نفسه فى مهمة لمعارضة الحكومة بأى ثمن؛ إذ إن ذلك الدور منوط أكثر بالصحافة الأمريكية.

كان أول الأنبياء هو موسى، ولم يخطر بباله أن ينتقد الحاكم؛ لأنه كان هو الحاكم، ولكن الأعظم كان هو إشعيا الذى خطر ذلك بباله. والحقيقة أنه كان هناك أكثر من واحد بهذا الاسم؛ لأنه بين الأقوال المنسوبة إلى شخص يحمل ذلك الاسم نجد أقوالاً تصف حوادث تبعد عن عصره مئات السنين، وكان إشعيا نبيًا مفضلاً لدى الشراح والمعلقين المسيحيين فيما بعد؛ لأن الكثير من نبوءاته كان يمكن أخذها على أنها نبوءة بقدوم يسوع المسيح، مثلما ورد فى سفر إشعيا (٧ : ١٤) «ولكن يعطيكم السيد نفسه آية. ها العذراء تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانويل». وأشهر استخدام لإشعيا على هذا النحو ينسب إلى يسوع نفسه:

«فدفع إليه سفر إشعيا النبى. ولما فتح السفر وجد الموضع الذى كان مكتوبًا فيه، روح الرب علىّ؛ لأنه مسحنى لأبشر المساكين أرسلنى لأشفى المنكسرى القلوب لأنادى المأسورين بالإطلاق وللعمى بالبصر وأرسل المنسحقين فى الحرية. وأكرز بسنة الرب المقبولة. ثم طوى السفر وسلمه إلى الخادم وجلس. وجميع الذين فى المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه» إنجيل لوقا (الإصحاح٤ : ١٧-٢٠).

وقد أسهم إشعيا والأنبياء اللاحقون إسهامًا شاملاً فى تطور اليهودية، ولا سيما فى التأكيد الذى ظهر بالتدريج على السلوك الأخلاقى والعدالة الاجتماعية باعتبارهما علامة على الاستقامة الحقة (بدلاً من الطقوس المجردة وتجنب التأثيرات الوثنية). وتحت ظل الأنبياء اللاحقين بدأت تبرز فكرة أن القواعد

الأخلاقية التى وضعها الرب تنطبق على الكل وليس على اليهود وحدهم، وأن اليهود عليهم أن يتصرفوا بطريقة أخلاقية تجاه غير اليهود تمامًا مثلما هو الحال فى سلوكهم مع رفاقهم فى الدين. والنموذج الذى أرساه العهد القديم للعدالة الاجتماعية قُيض له أن يكون ذا تأثير عميق على التطورات اللاحقة (فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين) مثل الاشتراكية المسيحية فى انجلترا وحركة الإنجيل الاجتماعى فى أمريكا.

ومن نافلة القول، على أية حال، أن نقول إن نموذج العهد القديم فى معاملة النساء لم يكن يشكل جزءًا من ذلك النموذج. كما أنه لم يكن، كما هو الحال فى الكاثوليكية الرومانية التى تضع مريم العذراء فى مكانة سامية (فى بعض الأحيان تجعلها مخلّصًا مساعدًا للجنس البشرى مع المسيح) هناك أى ملامح تعويضية فى البروتستانتية لتقويم الانحياز القوى للذكر.

وفى الروايتين اللتين يوردهما سفر التكوين عن الخليقة، تصف إحداهما أول ذكر وأول أنثى تم خلقهما فى الوقت نفسه، ولكن الرواية الثانية تصف آدم باعتباره المخلوق الأول وحواء باعتبارها خلقت من ضلع أخذ من جسده عندما راح فى النوم. ويصف النص آدم باعتباره حاكم حواء (وأحيانًا سيدها)، كما أن قصة السقوط تدمغها باعتبارها سبب سقوط آدم عندما أغوته بأن يأكل التفاحة المحرمة.

وكما أن القواعد ـ اليهودية ـ تفضل الرجال فى العلاقات الجنسية وعادات الزواج، كما شرحنا من قبل، فإن الشريعة الموسوية تتضمن العديد من ترتيبات التفرقة الأخرى. فبعد مولد الطفل، فإن المرأة التى وضعت طفلاً ذكراً تظل نجسة على مدى أربعين يومًا، أما إذا وضعت طفلة أنثى فإنها تظل نجسة ثمانين يومًا. وفى الإحصاء يتم حساب الذكور الذين يزيد عمرهم عن شهر، أما البنات فلا يتم إحصاؤهن. وكان الطفل الذكر دون الخامسة يساوى خمسة شيكل، والبنت ثلاثة شيكل. وكان من حق الأبناء وراثة آبائهم، ولا ترث البنات سوى حين لا يكون هناك أبناء، وإذا لم يكن هناك ذرية مباشرة، يرث الإخوة، أما الأخوات فلا ترثن. ويمكن إلغاء اليمين أو القسم الذى تقطعه النساء على أنفسهن بواسطة الآباء أو الأزواج،

أما الأيمان التى يقطعها الرجال على أنفسهم فكانت ملزمة. والمرأة التى تفقد عذريتها قبل الزواج يمكن رجمها بالحجارة حتى الموت، ولكن هذا لا ينطبق على الرجل. والطلاق لا يمكن أن يتم إلا بمبادرة من الرجل، وليس من قبل المرأة. وبعد نهاية النفى البابلى تمت إعادة بناء الهيكل الثانى وفيه منطقة منفصلة أقل مستوى مخصصة للنساء؛ ولم يكن مسموحًا للنساء أن تشهد فى ساحات المحاكم. وصار مُحرّمًا على النساء أن يتحدثن إلى الغرباء أو أن يظهرن علنا بغير حجاب؛ وهكذا.

وعند بداية العهد المسيحى، حينما أصبحت التنظيمات التفصيلية فى العهد القديم تعتبر غير ملزمة للمسيحيين على العموم، كان الباب مفتوحًا أمام الكنيسة البازغة أن تستبعد كل هذه القواعد التى تحبذ التفرقة ضد النساء، وتبدأ من جديد، وبدلاً من أن يحدث هذا تم تثبيت معظم هذه القواعد. وكان القديس بولس بشكل خاص حريصًا على تكرار القاعدة القائلة بأن النساء خاضعات لأزواجهن. وبالإضافة إلى ذلك، فإن تعديل الكنيسة المسيحية مجاز النبى هوشع ليناسبها ـ وهو المجاز القائل بأن علاقة الرب بإسرائيل مثل علاقة الزوج بالزوجة ـ قد أكد حتى على أن الزوجات مدينات بالطاعة لأزواجهن كما تدين الكنيسة بالطاعة للمسيح.

وهناك عوامل تفرقة أخرى فى العهد الجديد، مثل أن النساء لا ينبغى أن تكن «رأس» الرجال؛ إذ يجب أن تلزم النساء الصمت فى الاجتماع، كما أن النساء يجب أن تغطين شعورهن فى كل الأوقات، وهلم جرا. وقد مال البروتستانت إلى أخذ العهد الجديد حرفيًا مثل العهد القديم، ولم يكونوا قادرين على السماح بالكثير من الانحراف فى تفسير مثل تلك القواعد. وصارت البروتستانتية ديانة ذكورية بشكل زائد عن الحد نتيجة لهذا. أما الكاثوليكية، بحريتها فى إعادة تفسير النصوص المقدسة، والكثيرات من القديسات اللاتى تعترف بهن، ونظمها الرهبانية الكثيرة القاصرة على النساء وأديرتها القوية، فضلاً عن إخلاصها لمريم العذراء باعتبارها الكائن البشرى الأسمى (على الرغم من أنها حملت بلا دنس)، لم تكن أبدًا تميل إلى الذكور بمثل هذا الوضوح. ومن ناحية أخرى، فمنذ القرن

الثالث عشر على الأقل كانت العزوبية الإجبارية للقساوسة الرجال قد تركت حكومة الكنيسة الكاثوليكية فى أيدى الرجال وحدهم - وهو ما كان يصدق أيضًا على الكنائس البروتستانتية - بل إنها أيضًا تركت هذه الحكومة بأيدى رجال لم تكن لهم علاقة بالنساء كزوجات وبنات. وقد أدى هذا حتمًا إلى اتجاه لا ينظر فقط إلى النساء نظرة استعلاء، وإنما ينظر إليهن متطلعًا أيضًا بطريقة زائدة عن الحد. **لقد كانت النساء فى الثقافات الكاثوليكية إما متبتلات أو عاهرات، أو مزيجًا من الاثنتين. أما فى الثقافات البروتستانتية فقد كانت النساء زوجات منزليات.**

ولكن لم تستبعد أى من الثقافتين (البروتستانتية و الكاثوليكية) النساء من عضوية شعب الله أو الشعب المختار. ولهذا السبب، كان عليهن أيضًا أن يكن سوداوات، أو من الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية، أو كاثوليكيات (ولا سيما الأيرلنديات). لأن تلك كانت ثلاثًا من الفصائل الأساسية التى شعرت بقوة الاعتقاد الإنجليزى أو الأمريكى بأنهم الشعب المختار، وأن الرب سمح لهم بأن يتصرفوا تجاه الأغيار تمامًا مثل موسى وجدعون ويوشع وغيرهم من حكّام إسرائيل القديمة.

وتشبيه قارة أمريكا الشمالية بالأرض الموعودة عنصر قوى فى الشعور البازغ بالوطنية الأمريكية، قبل الحرب الثورية وبعدها. وكان هذا موضوعًا منتظمًا فى الخطب والمواعظ الكنسية. وقد أهدى «تيموثى دوايت» كتاب: «قهر كنعان - The Conquest of Canaan» لچورچ واشنطن، بيد أنه لم يولد شعورًا بأنه قال شيئًا جديدًا. والتشابه بين أرض كنعان، والتى سكنتها بالفعل قبائل عديدة، ولكن زعم أنها نتيجة هبة ربانية إلى شعب الله المختار الأول، وهذه الأرض الشاسعة الثرية «الأرض التى تفيض باللبن والعسل»، كما زعم شعب الله المختار الجديد، واضح تمام الوضوح.

وربما كان الأمر مختلفًا. ففى فرچينيا، كان زواج چون رولف وبوكاهونتاس ابنة الزعيم المحلى، يوحى ببداية علاقة من السلام والمشاركة، بيد أنه لم يستمر ولكن الانفصال لم يكن خطأ الإنجليزى وحده؛ إذ إن التدهور الحقيقى بدأ،

بصورة طبيعية، مع الشعب المختار الممتاز، أى أوائل المستوطنين البيوريتان فى ماساشوستس. ففى البداية أشفق الهنود الحمر عليهم - وهى حقيقة يتم إحياء ذكراها سنويًا فى عيد الشكر(*) - ولكن ردهم الجميل كان سريعًا وقاسيًا. ويصف بى براون فى كتابه «Bury My Heart at Wounded Knee» التقدم السريع صوب الصراع والمواجهة فى هذه العلاقة الأكثر مأساوية بين كافة العلاقات الاستعمارية:

«على مدى سنوات عديدة كان هؤلاء الإنجليز وجيرانهم الهنود يعيشون فى سلام، ولكن المزيد من حمولات السفن من البيض استمرت فى القدوم إلى الشاطئ بأعداد كبيرة. وكانت أصوات الفئوس وسقوط الأشجار تتردد أصداؤها فى الأرض التى أطلق عليها البيض حينئذ اسم نيوإنجلاند (انجلترا الجديدة). وبدأت المستوطنات تزاحم بعضها بعضًا. وفى سنة ١٦٢٥م طلب بعض المستعمرين من ساموست أن يعطيهم مساحة إضافية من الأرض تبلغ اثنى عشر ألف فدان إنجليزى من أراضى بيما كويد. وكان ساموست يعرف أن الأرض تأتى من الروح العظيمة، وهى بلا حدود مثل السماء وليست ملكًا لأحد. ولكى يسلى أولئك الغرباء بأساليبهم الغريبة، أقام احتفالاً لنقل الأرض ووضع علامته على ورقة أعطاها لهم، وكانت تلك أول وثيقة تتعلق بالأراضى الهندية للمستعمرين الإنجليز. ولم يحفل معظم المستوطنين الذين كانوا يفدون بالآلاف فى ذلك الحين بالمرور بمثل هذا الاحتفال، وفى ذلك الوقت الذى كان ماساسويت، الرئيس الكبير لقبائل وامبانواجز، قد مات سنة ١٦٦٢م، تم طرد شعبه إلى البرارى. وتنبأ ابنه ميتاكوم بنهاية جميع الهنود ما لم يتحدوا لمقاومة الغزاة».

وكوّن ميتاكوم تحالفًا من القبائل الهندية ثم خرج للحرب، وهاجم خمسين مستوطنة ودمر منها اثنتى عشرة. وبعد شهور من القتال، تمكنت نيران البنادق المتفوقة التى بحوزة الرجل الأبيض من تحقيق الهيمنة على القبائل الهندية. فقد قتل رجالها - وعلقت رأس ميتاكوم على عصا فى پلايموث لمدة عشرين سنة - وتم

(*) يحتفل الأمريكيون سنويًا بـ«عيد الشكر»، بمناسبة المساعدة الضرورية التى قدمها لهم الهنود الحمر عند هجرتهم من انجلترا. أما رد الجميل فكان إبادة الهنود وحضارتهم - المترجم.

بيع النساء والأطفال فى أسواق النخاسة، تمامًا مثلما قال الكتاب المقدس أن ينبغى أن يُفعل بهم. ويقول براون: «وعلى مدى قرنين آخرين من الزمان تكررت هذه الحوادث مرات ومرات كلما تحرك المستعمرون الأوروبيون إلى الداخل خلال ممرات «Alleghenies» ومع مجارى الأنهار التى تصب باتجاه الغرب إلى المياه العظيمة (الميسيسيبى) ثم إلى الأوحال الكبرى (نهر الميسورى)».

ومن وجهة النظر الهندية، كانت هناك مصيبة واحدة تمثل ذروة كافة المصائب الأخرى فى تاريخ تعاملاتهم مع الرجل الأبيض. ومثلما يعلن ريجينالد هورسمان بصراحة مكشوفة فى كتابه «Expansion and American Indien Policy» «كان الانتصار الأمريكى فى الثورة كارثة على الهنود». وعند بداية الحرب حسب الهنود أن ما يخشونه من التجار والموظفين البريطانيين أقل مما يخافونه من ملاك الأراضى والمزارعين الأمريكيين. ومنذ ذلك الحين انضموا إلى القوات البريطانية بل كانوا فى بعض الأحيان وحدات نظامية تحت قيادة ضباط هنود، ولكن فى معظم الأحيان كانوا عصابات حرب تحارب حسب قواعدها الخاصة. ولكن عندما خسر البريطانيون خسروا هم أيضًا. ولم تتم استشارتهم فى إقرار السلام - إذ لم يرد ذكر للشئون الهندية فى معاهدة باريس سنة ١٧٨٢م بين بريطانيا والولايات المتحدة - ولكن الحكومة الأمريكية مضت فى معاملتهم بوصفهم عدوًا مهزومًا يمكن احتلال أرضه.

وفى استجابتها تجاه الغارات غير المرخصة، رسمت الإدارة الاستعمارية البريطانية ما يسمى «خط الإعلان» على الخريطة سنة ١٧٦٣م كجزء من الاستيلاء على كندا الفرنسية، لتحريم مصادرة الأراضى الهندية وخصصت كل المنطقة الواقعة غرب «الأبالاش - Appalachians» إلى الهنود الحمر. ويصف روبرت هارفى «الاستياء الحارق» ضد «خط الإعلان» بأنه «أحد الدوافع الرئيسية، رغم عدم ذكره، وراء تمرد المستعمرين فى الحرب» ويستمر فى القول:

«ما أن اندلعت الحرب بين البريطانيين والأمريكيين، من الشمال إلى الجنوب على امتداد الحدود الغربية، لم يكن ثمة حاجز يمنع المجازر المنتظمة التى ارتكبت

فى حق القبائل الهندية عبر خط الإعلان ـ والتى تم الجزء الأكبر منها على أيدى الميليشيات التى تكونت من بين المستوطنين البيض الطامعين فى الأرض بمناطق الحدود بمؤازرة كاملة من واشنطن والقيادة الأمريكية العليا. وقد نجحت هذه المجازر بشكل مخرب، كما فتحت الطريق أمام الاحتلال الكامل للأراضى الهندية خلال القرن التالى. وتم ذبح الآلاف من الهنود فى العملية، كما حرقت مئات من قراهم وسوّيت بالأرض، كما خربت مساحات شاسعة من الأرض، وتم تدمير آلاف الأطنان من المحاصيل، وربما كان من المتعمد تجويع عشرات الآلاف من الهنود حتى الموت جوعًا نتيجة لهذا».

.....

.....

بل إن الحصبة كانت قاتلاً أشد سوءًا. وقد لاحظ البيوريتان فى ماساشوستس كيف كان الهنود عرضة لهذا المرض المهلك، ويصف أحدهم التناقص السريع فى السكان بسبب هذا المرض حيث إن «الترتيب المدهش للرب يسوع المسيح، برعايته لموطن شعبه فى العالم الغربى» (والمقصود بشعبه هنا البيوريتان). وكان البريطانيون قد حاولوا نشر الحصبة بين الهنود المتحالفين مع الفرنسيين الذين كانوا يحاصرون بتيسبرج فى سنة ١٧٦٣م، بإعطائهم بطانيات تحمل عدوى الحصبة، وليس من المؤكد أنهم نجحوا، وكانت الحصبة منتشرة بالفعل. وغالبًا ما كان يُشار إلى الحصبة على أنها المساعدة التى تقدمها العناية الإلهية لاستيطان البيض فى الأراضى الهندية، وتوحى الأدلة أن إعطاء البطانيات التى تحمل العدوى للهنود قد صارت جزءًا من الفولكلور فى أمريكا، سواء للناس البيض أو الهنود الحمر، سواء كان ذلك حقيقيًا أم لا. كما أن التأخر من جانب الحكومة الأمريكية فى محاربة المرض بين الهنود فى القرن التاسع عشر، بعد أن صار التطعيم ضد المرض ممكنًا، يوحى بعدم الرغبة فى الوقوف فى طريق «غرض الرب» فى هذا الشأن. فهل كان ممكنًا إنقاذ الهنود الحمر لو أن السلطات الأمريكية كانت قد رأت أن من صالحها أن تفعل هذا؟ هذا أمر محتمل تمامًا؛إذ إن واشنطن باتخاذ الإجراء الطبى

البدائى المعروف باسم «التطعيم» إنما قام بخطوات للقضاء على مرض الحصبة فى جيشه الذى كان يحارب البريطانيين، وهو ما ساعده على النصر دونما شك.

أما الهنود الذين سُرقت أرضهم فلم يعودوا بدوًا. إذ كانت معظم الأراضى تحت الزراعة، كما أن مستوى معيشة الناس كان متقدمًا. ومن ثم كانت ذات قيمة أكبر عن ذى قبل؛ وفى ظل الموقف المالى الحرج فى الأيام الأولى للولايات المتحدة كان بيع الأراضى الهندية للمستوطنين وسيلة جيدة لرفع الدخل (ولم تكن أثمان هذه الأرض تذهب إلى الهنود الحمر بأى حال وإنما إلى الحكومة الجديدة). وعلى الرغم من أن البريطانيين لم يشتهروا بحبهم للهنود الحمر، فإنهم كانوا قد منحوهم وضعًا قانونيًا واعترفوا بحقهم فى الأرض - أى الملكية بوضع اليد. ولم تكن الحكومة الأمريكية الجديدة راغبة فى أن تنحو هذا النحو، وتذرعت بحجة أن الهنود الحمر كانوا آنذاك عدوًا مهزومًا فقدَ حقوقه.

ويصف هورسمان الموقف على هذا النحو:

«ومع هذا، فإنه على الرغم من أن الشطر الشرقى من وادى الميسيسيبى كان فى غالبه خاليًا من المستوطنين الأمريكيين، فإنه لم يكن مجرد برارى مهجورة فقد يكتب تاريخه فى بعض الأحيان كما لو كان المستوطنون يصبون فى واد شاسع خال، على حين أن الحقيقة هى أن الشطر الشرقى من وادى الميسيسيبى كانت تشغله قبائل الهنود الحمر. وكانت كثير من هذه القبائل قد حاربت بنجاح إلى جانب البريطانيين فى الثورة: أما القبائل الأخرى على ضفاف الميسيسيبى فلم تكن قد سمعت بأن ثورة قد حدثت. وقليل منها استوعبت كيف أن توقيع معاهدة باريس بين الإنجليز والأمريكيين يمكن أن يؤدى إلى نقل قراهم وأراضى الصيد الخاصة بهم إلى الولايات المتحدة الجديدة».

ومن المذهل كيف أن المركزية الأوروبية كانت تشكل موقف كل من البريطانيين والأمريكيين فيما يتعلق بحقوق الهنود الحمر. إذ لم يكن البريطانيون يمتلكون الأرض التى سُلمت إلى الأمريكيين بمقتضى معاهدة باريس سنة ١٧٨٢م،

ولكن الملاك الحقيقيين، أى الهنود الحمر، كانوا غائبين عن العقل الأوروبى. ومفتاح هذه العقلية هو افتراض أن البريطانيين (وبالتالى خلفاءهم الأمريكيين) لهم حق منحه الرب فى ملكية الأرض، وبالمقارنة مع هذا الحق الإلهى كان الهنود الحمر مجرد محتلين لأرض غيرهم (إذ إن ملكية وضع اليد لم يُعتد بها)، وكان من الممكن طردهم منها أو قتلهم. وعادة ما كانت العملية تبدأ، مثلما حدث فى ماساشوستس قبل قرن من الزمان، بالمجهودات المبذولة لطردهم وهو ما كان يجابه بالمقاومة؛ وإذ حملوا السلاح ضد البيض، فقد أعلنوا أنهم أعداء؛ ومن ثم يمكن محاربتهم وهزيمتهم(*).

وكان «واشنطن» نفسه يحبذ منح الأرض لأولئك الذين قاتلوا إلى جانب الثورة. ولكونهم رجالاً مقاتلين كان بوسعهم حماية المستوطنين البيض الآخرين فى أقاليم الحدود «ومن المرجح أنهم حالوا دون قتل الكثير من العائلات البريئة التى غالبًا ما كانت، فى حالتهم المعتادة لتوسيع مستوطناتنا وتعدياتهم على أراضى الصيد الخاصة بالأهالى من الهنود الحمر، يسقطون ضحايا منحوسين للبربرية الوحشية». ولم ترد هنا أية فكرة عن حق الهنود فى حماية أراضى الصيد التى تخصهم بالقوة، على الرغم من أن المستوطنين كانوا يستخدمون أساليب كان واشنطن نفسه يعترف أنها استفزازية.

والمدهش فى السياسة الأمريكية تجاه الهنود الحمر، سواء عند بداية الجمهورية الجديدة أو فيما بعد، هو التظاهر المتكرر والذى لم يتم التخلى عنه مطلقًا بأن حيازة الأرض الهندية كان يتم حسب القواعد المتحضرة بشكل ما. إذ كان هناك كلام لا ينتهى عن المعاهدات والاتفاقيات، والحدود والضمانات، وبعد كل معاهدة كان الأمريكيون يظهرون كما لو أنهم سوف يلتزمون بها حقًا فى هذه المرة. ودائمًا ما كان يظهر سبب ما، وعادة ما كان يحدث بسرعة؛ بسبب أن ما تنازل عنه الهنود لم

(*) تشبه البريطانيون والأمريكيون ببنى إسرائيل وأرضهم الموعودة، فأى رد فعل نتوقعه من البريطانيين والأمريكيين إزاء ما يفعله الأصل (بنو إسرائيل، وإسرائيل الآن) فى الأرض الموعودة (فلسطين الآن)؟ ـ المترجم.

يكن كافيًا أن يتم تنازل جديد(*). وحسبما يلاحظ هورسمان:

«كانت الاتفاقيات مع القبائل الهندية تُعقد أو تُنقض؛ لأنه فى عيون العالم المتحضر كانت للولايات المتحدة بالفعل السيادة على الأراضى غرب الميسيسيبى. والأسئلة الوحيدة كانت تتعلق بكيف ومتى وتحت أى شروط كان يمكن تجريد الهنود الحمر فعلاً من أملاكهم. وبالنسبة للمفاوضين البيض كانت لغة المعاهدة مجرد وسيلة للحصول على الأرض بأقل قدر من الصراع والتكاليف، كما كانت وسيلة لتثبيط المقاومة الهندية حتى تصبح التنازلات القادمة الحتمية ضرورة. أما بالنسبة للمفاوضين من الهنود الحمر، فكانت لغة المعاهدة غالبًا ما تمثل وعودًا جادة كانوا يصدقون أنها سوف تدخل حيز التنفيذ»(*).

والحقيقة أن تقدم الاستيطان الأمريكى فى الأراضى الهندية كان يمكن أن يمضى بطريقة مختلفة قليلاً لو أن السياسة المعلنة كانت هى النهب الفاضح الغاشم، دونما اعتبار للملطفات القانونية. وبعبارة أخرى، فإن كل هذه المعاهدات والاتفاقيات لم تجلب سوى قدر قليل من الفائدة للهنود. فبدلاً من ذلك فإنهم اكتفوا بإقناع من يقومون بالتعديات بأنهم كانوا يتصرفون بشرف؛ وهو ما كان يشجعهم على القيام بالمزيد من التعدى، بل وبشغف أكثر.

كان هذا جزءًا من الاقتناع بأنه بمعنى ما كان يتم إسداء الجميل إلى الهنود الحمر؛ لأنهم كانوا يتعرضون إلى مميزات الحضارة الأمريكية. وكان توماس چيفرسون على وجه الخصوص يريد سياسة تجاه الهنود لا «تنتهك مفهومه الخاص عن رسالة الولايات المتحدة فى أن تظهر لأوروبا أن أمة يمكن أن تعيش بلا حرب ويمكن أن تجلب السعادة إلى شعبها»(*): وعلى حد تعبير هورسمان:

«وكون أنه رأى التوسع الأمريكى فى مصطلحات نشر الحضارة، وجلب أسلوب حياة جديد أفضل، أمرًا لا يثير الدهشة... ومفهوم «المصير الواضح»(**) فى التوسع الأخلاقى، واضح تمامًا فى سياسة چيفرسون تجاه

(*) أليس ذلك هو طبق الأصل مما يحدث مع الفلسطينيين الآن؟ ـ المترجم.

(**) أو المصير المحتوم، أو حمل الرجل الأبيض، كلها مصطلحات تبرر وتحث على التوسع على حساب الغير بدعوى مسئولية إلهية لنشر الحضارة الأنجلوساكسونية، وهى الحضارة المسيحية أو اليهومسيحية ـ المترجم.

الهنود. وبالنسبة لچيڤرسون كان التوسع مرغوبًا ليس فقط بالنسبة للأمريكيين، ولكن أيضًا بالنسبة لأولئك الذين كان من الممكن أن يبتلعهم التوسع. هذه الثقة غالبًا ما كانت تعمى چيڤرسون عن الحقائق اليومية فى العلاقات مع الهنود».

وتلخيص هورسمان للسياسة الأمريكية تجاه الهنود هو أنها بدأت بمبادئ سامية برهنت على الصعوبة المتزايدة فى تطبيقها، وأن قبول فكرة أن الهنود لهم حقوق لم تكن متماشية مع الجوع إلى الأرض الذى كانت سياسة الحكومة تحفزه. وكسب الجوع إلى الأرض المعركة، بيد أن المبادئ السامية عوملت على نحو ما كما لو أن الهنود قد لقوا معاملة عادلة. ولم يكن على أمريكا فقط أن تظهر فى الخارج على أنها مخلصة لحركة التنوير؛ وإنما كان ينبغى عليها أن تكون هى نفسها قادرة على تصديق هذا، وكان هذا يتطلب إعادة ترتيب الحقائق.

وهكذا فإن تاريخ قارة أمريكا الشمالية كان لا بد من إعادة تلفيقه؛ لكى يتم تحاشى تذكير الناس بقرن أو أكثر من القسوة والعقيدة الفاسدة التى كانت فى الحقيقة مطلوبة فى بناء البلد الجديد، وبدلاً من ذلك حل محله برارى خاوية كانت فى انتظار من يملؤها ويمدينها من أولئك الذين جلبوا الحضارة المسيحية. وقد تعاملت ثقافة الحدود الأمريكية مع الهندى باعتباره نوعًا شرسًا - بشكل خاص - من الخطر الطبيعى الذى يقف فى طريق التقدم، يقف فى مكان ما بين الدب والحية الرقطاء ذات الأجراس، أو بين القحط والعواطف الرعدية، وليس باعتباره كائنًا بشريًا كان حقه فى الحياة والحرية والسعى صوب السعادة من الأمور البديهية. ومع هذا فقد كانت هذه بالضبط هى معايير الحضارة التى كان الأمريكيون يحاولون نشرها. وأفضل تفسير لهذا التناقض ليس هو النفاق، على الرغم من أنه كان موجودًا بالتأكيد، ولا العنصرية بالمعنى الحديث، على الرغم من أن الثقة فى التفوق المتوارث فى الجنس الأبيض كانت شائعة على المستوى العالمى بشكل أو بآخر، ولا حتى النزعة الشريرة المجردة؛ لأن ذلك كان زمنًا يأخذ الاستقامة على محمل الجد تمامًا، زمنًا من الشغف الإنجيلى الكثيف والتدين القائم على الكتاب المقدس؛ إذ كان الناس يرغبون فى أن يسلكوا سلوكًا حسنًا.

وأفضل تفسير ـ ببساطة ـ هو أن معايير الحضارة التى كانت أمريكا ترغب فى أن تتميز بها كانت تنطبق فقط على أولئك الذين تضمهم العائلة الأمريكية، أى أولئك الذين كانوا بالفعل من أبناء الشعب المختار. ولم يكن أولئك الذين بالخارج يستظلون بغطائها. وثمة تشابه دقيق هنا مع سلوك ذلك الشعب المختار السابق، أى الإسرائيليين القدماء، الذين كانت الوصايا العشر لديهم بالفعل قفزة أمامية أخلاقية أبعد مما أحرزته ثقافات أخرى فى ذلك العصر(*)، بيد أنهم كانوا يرون أن الوصايا العشر لا تنطبق سوى عليهم. **كان الكنعانيون والهنود خارج العهد، أى أنهم ليسوا من المستفيدين. وكان يمكن أخذ أراضيهم، ويمكن قتلهم إذا قاوموا. ولأنهم ليسوا من ضمن الشعب المختار، حينما ينظر إليه من خلال العدسات الأخلاقية للإسرائيليين القدماء، أو الإنجليين الأمريكان المتدينين، فقد صاروا غير مرئيين بشكل أو بآخر.**

ويتعامل «سيمون شاما» مع التبجيل الأمريكى للبرارى الخالية فى كتابه: «Landscape and Memory». وقد تلخص فى اكتشاف سنة ١٨٥٢م ـ ورد فى الفعل الوطنى الخارق للعادة إزاءه ـ لمنطقة كبيرة من الغابات فيما صار يعرف باسم «يوسيمايت ڤالى» عند سفوح تلال سييرا نيڤادا فى وسط كاليفورنيا. ويبدو أن اسم يوسيمايت جاء من تعبير هندى عن الجنس الأبيض معناه «بعض الناس سفاحون». وفى الخيال الوطنى، كان لا بد أن تكون خالية، لم تفسدها يد الإنسان. وكانت تحتوى على مساحات من الأشجار الباسقة، وهى بعض أكبر الأشياء الحية التى تم اكتشافها على الإطلاق فى أى مكان على سطح كوكب الأرض، وهى ما تم تصنيفها فيما بعد تحت اسم «Sequoia Gigantea». وبسبب كبر عمرها ـ بعضها عمره آلاف السنين ـ فإنها سدت فجوة فى الخيال الأمريكى وخلقت توازنًا مع الولع الوطنى بالحداثة. وقد زعم بعض الشعراء، فعلاً، أن هذه

(*) هذا كلام غير دقيق بالمرة؛ لأن الناظر فى التراث المصرى القديم، أو فى التراث الذى عرفته بلاد الرافدين، أو حتى الحضارات القديمة فى الهند والصين وفارس يجد أن لكل منها نظامًا أخلاقيًا متقدمًا. بل إن هذه الحضارات لم تقصر هذا الإطار الأخلاقى فى نطاقها؛ بسبب النزعة العنصرية كما زعم اليهود - المترجم.

الأشجار كانت هى «الأمريكيين الأصليين» حقّا، وبذلك ينزعون عن الهنود هذا اللقب المحرج بطريقة مريحة وملائمة. فقد كانت، حسبما لاحظ أحد المراقبين الذين أذهلتهم الأشجار، «الشجرة العبرية فهى قديمة قدم العهد القديم». ووصل الخيال إلى أن الرب قد زرع هذه الأشجار منذ زمن طويل توقعًا لوصول الجنس الأبيض الذى سوف يقدرها حق قدرها.

والحقيقة أن الوادى لم يكن خاليًا من السكان الآدميين إطلاقًا؛ لأنه كان وطن شعب الأهواهنيشى منذ زمن لا تعيه الذاكرة. وأرض المروج التى تسود الوادى، والتى حيرت الزائرين البيض بنباتها الوفير، كانت فى الواقع تبدو على ما هى عليه؛ لأن هذا كان غابات تحت التحكم، أى أنها كانت أرضًا يتم تطهيرها بالحرق من أجل الزراعة. ولكن الزوار كانوا يريدون لها أن تكون «طبيعة»، وليست نتاجًا لمهارة الهنود الذين يحتقرونهم. وبسرعة تمت مطاردة الهنود خارج وادى يوسيمايت الذى أعلن حديقة للولاية (ثم متنزهًا وطنيًا فيما بعد).

والإحساس بأن يوسيمايت والأشجار الكبيرة كانت تشكل تجليًا فائق القوة لتفرد الجمهورية الأمريكية هو فقط الذى يمكن أن يفسر السبب فى أن إبراهام لينكولن، فى غمرة الحرب الأهلية، وهو يوقع مرسومًا فى أول يوليو ١٨٦٤م، يمنحها لولاية كاليفورنيا «لصالح الشعب، لتكون منتجعًا وترفيهًا لهم، ولكى يحافظوا عليها دونما تغيير على مر الزمان.

لقد كانت هالة التاريخ المقدس، الشعور بأن غابة الأشجار الكبيرة كانت نوعًا من الآثار الأمريكية، نوعًا من مجمع الآلهة النباتى الذى حرك لينكولن والكونجرس؛ لكى يتصرفوا على النحو الذى تصرفوا به... لقد بدا أن الأشجار العملاقة تبرهن على صحة البصيرة الوطنية الأمريكية بأن الضخامة المذهلة تخاطب الروح. وكانت حقيقة أن الأعمدة الحمراء لهذا المعبد الأمريكى السامى الرفيع لم تشيده يد الإنسان، هى بالضبط السبب فى أنها (الأشجار العملاقة) بدت وكأنها من صنع العناية الإلهية، وأخذت تنمو بشكل قدرى بل وبشكل رهيب حتى يكتشفها شعب الله المختار الجديد فى قلب الأرض الموعودة».

وبعبارة أخرى، فإن ما كان الأمريكيون يبحثون عنه هو طريقة ما لتوضيح أن الأرض التى سكنوها لم تكن مجرد أرض جميلة وإنما كانت «مقدسة» بالفعل.

وعلى أية حال، فإن الأمريكيين أحسوا فى الغابة البرية أنهم يمكن أن يكونوا على صلة بأرواحهم وأن يرتبطوا بربهم. وغالبًا ما كان الجيل الأول من الفنانين الأمريكيين الأصليين يرسمون مناظر ريفية، ولا سيما أراضى الغابات، كمعابد أو كاتدرائيات طبيعية ـ صامتة ساكنة، خاشعة، متسامية وصوفية. وتتحدث القصائد الشعرية التى ألهمتها مثل هذه العواطف عن التواضع الشامل، وعدم الجدارة تقريبًا، حينما يتأمل الشعراء كيف أن الرب فعل الكثير من أجلهم بوصفهم أمريكيين، **وليس أقلها أنه أعطاهم مثل هذه البلاد الخاوية المدهشة لكى يسكنوها.** وقد عبر والت هويتمان عن هذا الحلم الأمريكى حينما كتب فى قصيدة «أغنية لنفسى»:

وحدى فى البرية والجبال أصطاد

وأتجول مندهشًا بخفتى وانشراحى

فى أواخر النهار لأختار بقعة أمضى الليل فيها

أضرم نارًا وأشوى الفريسة المقتولة لتوها

وأروح فى النوم فوق كومة من أوراق الشجر وكلبى وبندقيتى إلى جوارى

كان جوهر مثل هذا الشعور، أن الرب أعطاها لهم، وأنهم لم يضطروا إلى سرقتها من غيرهم؛ إذ إن المصير المحدد سلفًا (المصير المحتوم لنشر الحضارة) لا يتكلف الضمير!

* * *